

الإمام في أيام المحن

بقلم الدكتور عبد الوهاب عزيم

الأستاذ بكلية الآداب

تحدثت في العدد الماضي في الصبر على الشدائد، وبينت كيف تستقبل النفوس الكبار الخطوب الجسام فتثبت لها وتستكبر عليها، وتصدمها بعنتها من الإيمان والشجاعة والعزة والإباء حتى تنكشف غمتها وتجل غمرتها .

واليوم أقول: ليس الصبر الذي ندعو إليه ذلاً للحوادث، ورضاً بصروف الأيام، واستكانة لغير الزمان، وخنوعاً لتصريف الخطوب . كلا كلا . إن هذا كله ذل وعبودية وعجز تسمى بغير أسمائها فيقال صبر ورضاً وقناعة .

إنما الصبر الذي ندعو إليه أن يلقى المرء الخطب هائلاً فلا يرتاع، والحدث مخيفاً فلا يخاف، والبلايا مظلمة فلا يضل ولا يحار ولا يتبدد، بل يقدم في جوانبها بفكره وعزمه حتى يشق في ظلامها طريقه، ويتبين في غمها مقصده . وينصلت منها كما ينصلت السيف من غمده .

إنما الصبر الذي ندعو إليه أن تدم الإنسان الأمور المشككة، والصعاب المعضلة فلا تملك عليه لبه ولا تسلبه حزمه، بل يوجه إليها من تجربته وعقله وحزمه وعزمه ما ييسرها ويفرجها .

إذا نزلت الخطوب بأمة عظيمة لم تفرغ ولم تتحير، بل حشدت كل مافي أبنائها وتاريخها من قوة لدرء المصائب والخروج منها . وبادر أولو الرأي فيها وذوو العقول منها فكانوا لها رواسي تعصمها أن تتزلزل، ومصايح تمنعها أن تضل، وآمالاً تحميها أن تياس، وعزائم تأتي لها أن تضعف، وما يزالون بها سياسة وهداية وتثبيتاً وجهاداً حتى يخرجوا بها من المحنة قوية بإيمانها وأخلاقها، قد استفادت من المحنة أكثر مما أخذت المحنة منها . ثم تبقى هذه التجارب وهذه العبرة للأمة تفرغ إليها كلما حزبها أمر أو دهمها خطب .

وإنما يُنحَق تاريخ الأمم في الحوادث الجبار، ويستمر بما عمده به أبنائها في كل خطب من الأقوال والأفعال . وإن الكلمة الحرة لبقى على مر الزمان روحاً ينفخ في الأمة العظيمة

والجهاد والصبر والدأب . وإن الموقف المجيد يبقى أبد الدهر مثلاً يمد الأمة حين البأس بما تقال به اليأس من أمل وعمل . ولم في التاريخ من عبر ، ولم في التاريخ من منلات .

حدثنا تاريخ الإسلام أن المسلمين في وقائع كثيرة ثبتوا على التوائب وصبروا وقالوا :
الدهر فنلبوا .

وحدثنا تاريخ الإسلام في عصر النبوة أن المسلمين هزموا في غزوة أحد ولكنها هزيمة لم تتعد صفوف القتال : رأى المشركون - وهم أكثر عدداً - غزوة من المسلمين فاتتهزوها ، ولكن إيمان المسلمين لم يتزعزع ونفوسهم لم تمنع ، ولكن عزائمهم لم تضعف واستماتتهم في سبيل الله لم تن ، ولكن الملح والرعب والفرقة والخلاف لم تجرد إلى قلوب المسلمين سيلاً . لهذا لم يستطع العدو الذي غلب في المعركة أن يتبع الجيش المغلوب ولم يستطع أن يدهم المدينة ، بل رضى من هذا الظفر بالإياب ، وجمع المسلمون شملهم وخرجوا يراقبون عدوهم ويخيفونه . أن يطعم في ديارهم وكانت عاقبة الصبر والثبات كما قال القرآن الكريم : "يستبشرون بنعمة من الله وفضل وإن الله لا يضيع أجر المؤمنين الذين استجابوا لله وللرسول من بعدما أصابهم النوح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم . الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم "

وحدثنا تاريخ الإسلام كذلك أن المشركين من قريش وقبائل أخرى اتخروا بينهم حتى أن يغزوا المهلمين في دارهم ، ويظنوا الإسلام في مدينته ، فصاروا في جمع حاشد قد ضمنوا لأنفسهم الغلبة بالكثرة . واشتد الأمر على المسلمين ، وهم يومئذ النشة القليلة التي يكافئها الله أن تثبت للناس جميعاً حتى تبلغ دعوة الله وتنتشر دينه في أرجاء الأرض . اشتد الأمر فكان كما وصفه القرآن الكريم :

" إذ جاءكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزلاً شديداً "

لأذ المسلمون بإيمانهم ، واعتصموا بقرآنتهم ، واقتدوا بنبيهم ، فهونوا الخطب على أنفسهم ووطنوا قلوبهم على الانتصار أو الموت ، وأعملوا عقولهم وأخلاقهم وأيديهم ، حفروا خندقاً في موضع الخوف من جهات المدينة ، وأرصدوا وراء هذا الخندق خنادق من الإيمان والصبر والثبات والأخوة والثقة بالله والتوكل عليه . وما زالوا حتى ملأوا قلوب أعدائهم رعباً وإياساً بشجاعتهم وصبرهم ، وحتى ملأوا صفوفهم ريبة واختلافاً بكيدهم وتدبيرهم ، فانجلت جموع الباطل يغزونها

عدو من أنفسهم، ويفل حثها شك في ضمائرنا وخور في عزائمنا، وانجلت الفعرة عن المسلمين أقوى بأسا وأشد في قلوب أعدائهم رهبة . ذلكم بأنهم قابلوا النزلة كما قال القرآن فيهم :

”ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما . من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينشروا بدلوا تبديلا“ .

وكذلك يحدثنا تاريخ الاسلام إبان نشأته أن المسلمين بعد أن فتحوا مكة ساروا إلى قبائل هوازن وكانت قد اجتمعت لحربهم . وبينما المسلمون يسرون آخر الليل بغتهم عدوهم في وادي حنين فدهشوا وتفرقوا وأيقن ضعفاء النفوس بالهزيمة وصبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وثبت فانتهاز إليه أنجاد المسلمين وثبتوا وصبروا فانقلب الهزيمة نصرا وغلب الخلق القوى في المأزق الضيق بعد أن غلبت الكثرة والسلاح في المعترك الواسع .

”لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثيركم فلم تغن عنكم شيئا وضاعت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين . ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين“ . فهذه السكينة ، هذا الصبر ، هذا الثبات كفل النصر والظفر . سنة الله في خلقه ، ماتصادت جماعتان إلا كانت العاقبة لأصبرهما على الشدائد . وأوقرهما وقت المحنة ، وأكثرهما نصيبا من السكينة والثقة بالله .

يصبر الإنسان للشدائد ليغلبها ، ويحملها ريثما يدفعها . وإنما تدفع الخطوب بالتعاون عليها ، والتضافر في مغالبتها . والمرء قليل بنفسه كثير بإخوانه . لا يستغنى الإنسان عن أخيه في السلم والحرب ، والرخاء والشدّة ، ولكن الشدائد تزيد شعور الفرد بحتاجته إلى أخيه . فإن غفل الإنسان عما بينه وبين إخوانه من أواصر ، وإذا توهم أنه يستطيع أن يعيش بنفسه لنفسه فإن الشدائد كفضيلة بأن تكشف عنه هذا الحجاب وترفع هذا الوهم فيرى أنه لا يملك نفعا ولا ضرا إلا بأمته ، ولا يستطيع صغيرة ولا كبيرة إلا ببنى وطنه .

وكلمة الخطر اشتد الشعور بالروابط القومية والوطنية ، وعلى قدر عظم الخطر تستحکم الألفة بين الأمة ، ويتمكن التعاون بينها ، ويقوى اتحادها علما بأن في الألفة والتعاون والاتحاد نجات الفرد والجماعة ، وأن الخطب الشديد ينبغي أن يقابل بما يكائنه من التعاون المحكم . وهناك تتصل النفوس ، وتتوحد القلوب وتتناصر الآراء والأعمال ، فإذا الأمة كلها جسد واحد يفكر بعقل واحد ويعمل في وئام لمقصد واحد . هنالك ينسى الفرد نفسه ويذكر أمته ، ويصغر نفسه ليكبر جماعته ، ويخاطر بنفسه ليقى دولته .

فإذا دهمت الأمة حرب — مثلا — تقدم جندها يقونها بأنفسهم ، ووقف سائر الأمة وراء الجند كل يبذل من عقله وخلقه وماله وصناعته وجهده لسلامة أمته . ويعرف كل رجل وكل امرأة أن عليه أن يؤدي واجبه على الوجه الأكل . فيدأب السامة والعلماء والكتاب والشعراء والتجار والزراع والصناع وكل من استطاع أن يقدم لأمنه عملا كبيرا أو صغيرا — يدأب هؤلاء جميعا على تأدية الواجب غير مدخنين ومعا ، ولا آلين جهدا .

والأمة المصرية المحيطة تقدر موقفها من الشدائد المحيطة ، فتعد للأمر عدته غير هيابة ولا مترزلة ولا يأسفة ولا خائفة . تستمد شرفها وعزتها ودينها وتاريخها لتؤدي في هذه المحن واجبها ، وتضطلع بقسطها من العمل لخيرها وخير البشر كافة . فعلىنا جميعا أن نتضامر ونتناصر ونتأخى لحمل العبء وتأدية الواجب . على كل منا أن يؤدي واجبه وأن يسر لأخيه تأدية واجبه بمعاونته وتيسير السبيل له . على كل مصرى أن يستملى ضميره ووجدانه ليؤدي واجبه راضيا مغتبطا . على كل مصرى أن يسر تصرف الأمور بطاعة القوانين والمبادرة إلى إنفاذها ومعاونة التأمين عليها ، بالتزام النظام والمحافظة عليه . رضا لا كرها ورغبة لا رجة .

إننا أمة لها من حاضرها وتاريخها ولها من عزتها وكرامتها ، ولها من إسلامها وعروبته لها من مكاتبتها بين الأمم العربية والاسلامية وفي الشرق والغرب ما يبصرها بواجبها ، ويشد أزرها ، ويملؤها عزرة وإباء ويأبى لها أن تذلل لحادث ، أو تنفض لنا زلة . فسيروا إلى الغاية قدما مخلصين لواجبكم ، متوكلين على ربكم . "ولا تهنوا ولا تحزنوا وأتتكم الأعلون والله معكم" .

عبد الوهاب عزام